

سيرة الأمير فخر الدين المعني الثاني وأبرز منجزاته^١

(١٥٧٢-١٦٣٥)



نسبُهُ

هو ابن الأمير قرقماز معن المعروف بفخر الدين المعني الثاني نسبة إلى جدّه الذي كان يُدعى فخر الدين أيضًا. ويُقال عنه الكبير لأنه من أعظم أمراء لبنان في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

تسلّم الأمير قرقماز، ابن فخر الدين الأوّل، الحكم سنة ١٥٤٥ أي بعد وفاة والده. وقد كان محبًّا للبنانيّين الذين اتخذوه قدوة لهم. توفّي قتلاً على يد إبراهيم باشا بعد أن أتهم بسرقة أموال الخزينة وكان ذلك سنة ١٥٨٤، تاركًا ولديه فخر الدين الثاني ويونس.

نشأته

ولد فخر الدين الثاني في بعقلين في ٦ آب ١٥٧٢. توفّي والده عندما كان في الثانية عشرة من عمره (الثالثة عشرة بحسب بعض المراجع) فحاولت والدته الست نسب المحافظة على مقاطعة الشوف حتّى يبلغ ولدها سن الرشد. وخوفًا من أن يعتدي العثمانيون على ولديها، طلبت من مدبرها الحاج كيوان أن يخفيهما في مكان آمن. فهربوا إلى منطقة عكار ليلاً. وخلال مرورهم في قرية أنطلياس، صادف الحاج كيوان صديقه أبا صقر ابراهيم ابن الشدياق سركيس الخازن الذي أقنعه بالإختباء عنده. فذهبوا إلى دير مار يوسف في منطقة بحرصاف ثمّ إلى قرية بلّونة في كسروان. ويقال إنّ الشيخ الخازنيّ، وبعد مغادرة إبراهيم باشا البلاد، سلّم الأميرين إلى خالهما الأمير سيف الدين التّوّخي، والي الشوف. ولكن معظم المؤرّخين يؤكّدون أنّ الأميرين بقيا في عهدة آل الخازن حتّى بلوغ الأمير فخر الدين الثاني سنّ الرشد.

تزوّج الأمير من ابنة الأمير يوسف باشا سيفا، أمير طرابلس، سنة ١٦٠٣ وأنجب منها ابنًا سمّاه علي. وتلا هذا الزواج ثلاث زيجات وقد زُرق بسبعة أولاد هم: علي، منصور، حسين، حيدر، بلق، حسن (وقد ذكره ماريتي هكذا : هاران Haran، لذا نرى في بعض المراجع، من ضمنها وستنفلد، اسم هارون بدل حسن) وابنتين ست النصر وفاخرة. ومن المؤرّخين من يذكر أنّ له أيضًا ابنًا اسمه مسعود.

^١ تشير إلى أنّ خلاصة هذه السيرة استندت على كتاب فخر الدين - مؤسس لبنان الحديث لعزير الأحديب، ط. ١، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٣، ٢٢١ صفحة.

خصاله

"كان فخر الدين... صافي السريرة، متواضعًا، بشوشًا... (وهو) حليم عند الغضب، ما سُمعت عنه الكلمة الفاحشة قطّ. يصغي إلى المظلوم فينصفه من ظلمه... قصير القامة، حنطيّ اللون، لطيف الهامة، مهاب، جليل، ذو عطاء جزيل، قويّ العزم، شديد الحزم، حسن التدبير..."^٢. وكان مولعًا بالآداب والفنون (الرسم والشعر، والموسيقى) والعلوم (الفلك والكيمياء والعلوم الإداريّة والسياسيّة والتاريخيّة) وكان يتقن لغات عديدة. وقد روى عنه المؤرّخ الأب أوجين روجيه^٣ أنّه ألف كتابًا في التاريخ، كما نقل رواية عن الإيطاليّة بعنوان "ماتيلدا"، ونقل كتاب أندريا ماتيوّلي عن الإيطاليّة. ويخبر المؤرّخون أيضًا أنّه استقدم رسامًا فرنسيًا وطلب منه أن يرسم النباتات والحشائش بأصولها وفروعها وأوراقها فرسم منها ١٥٠٠. كما أنّه قام ببناء الجسور وشقّ الطرقات وإقامة أقبية للشرب والريّ. وفضلاً عن ذلك شيّد الكنائس والجوامع والقصور والجنائن.^٤ في وقت فراغه، كان يلهو بالصيد وألعاب السيف والرمح والميدان واقتناء الخيول والأسلحة والمجوهرات، وكان يلعب الشطرنج والداما والسدر (الدريس) والنرد (الطاولة) والورق.

ساوى فخر الدين المعني الثاني بين الطوائف محترمًا دينهم وعقائدهم. وقد اختار حكماً وكتّابًا من اللبنانيين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: المفتي أحمد الخالدي والبارزين من آل الخازن. ولقد ضمّ مجلس الشورى، كما الجيش، رجالاً من مختلف الطوائف اللبنانيّة. أمّا بالنسبة إلى أصله ودينه فنشير إلى أنّ الآراء قد اختلفت إذ إنّ جميع الطوائف ادّعت بأنّه ينسب إليها. قام بفريضة الحجّ مرّتين وذلك سنة ١٥٩٠ و١٥٩١ ويقال بأنّه اعتنق المسيحيّة سنة ١٦٣٣ على أثر مرض ألمّ به وسمّي لوي فرنسوا^٥.

علاقاته مع أمراء لبنان ومشايخه

بغياّب الأمير الذي سافر إلى توسكانا لطلب مساعدة الغراندوق قوزما الثاني والبابا وملك إسبانيا منعًا لنشوب الحرب، انتزع أحمد باشا الحافظ ولايتي بيروت وكسروان من أتباع فخر الدين وسلّمها إلى حسين بن يوسف سيفا. كما ولّى الشيخ مظفر العنداري رئيس اليمينيّة على الغرب والجرد والمتن، وأسند إيالة صيدا إلى ابن البشنجي. فصادر هؤلاء رجال فخر الدين وغرّموهم أموالاً طائلة. أمّا الحافظ، وعلى رأس جيش يتألّف من خمسين ألف مقاتل، فزحف من دمشق إلى لبنان وأقام حصارًا على قلعة أرنون وحصن بانياس، ودام الحصار ستين يومًا. وعندما عجز عن احتلالهما توجّه إلى المدن والقرى فنهبها وأحرقها وقتل سكّانها. فأرسل الأمير يونس والدته إلى الحافظ بمهدف إيجاد تسوية. وقد أخبرته بالأعمال التي ارتكبتها جيشه وسلّمته مئة ألف قرش للسلطان وخمسين ألفًا له. فكتب عليها صكًا بثلاثمئة ألف قرش تنقّده إيّاها للعفو عن التنكيل بالشوف واسترهنها نفسها ومن معها من المشايخ لاستيفاء ذلك. أرسل الأمير يونس دفعة أولى من المبلغ بواسطة أحد المشايخ ولكنّ هذا الأخير قام بسرقتها. وعندما علم الحافظ بما حصل جرّد حملة عسكريّة وهاجم دير القمر فدخل الأمير يونس ورجاله الخازنيتين وأربعمئة من وجهاء الشوف قلعة بانياس. فقام حسين سيفا بحرق قصور

^٢ الخالدي الصفدي، أحمد بن محمد، في كتاب الأحذب، عزيز، فخر الدين - مؤسس لبنان الحديث، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٣، ص ٣٣.

^٣ المعلوف، عيسى اسكندر، تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني، جونبة، ١٩٦٦، ص ١٩٩، ٢٤١-٢٤٢، في كتاب الأحذب، عزيز، ...، ص ٦٥.

^٤ اسماعيل، عادل، *L'Histoire du Liban du 17ème siècle à nos jours*، المجلد الأول، *Le Liban au temps de Fakh ed-Dine II*، ص ٩٩-١١٧ في كتاب الأحذب،

عزيز، ...، ص ٦٦.

^٥ دو باروتون، الأب هيلار، *La France Catholique en Orient durant les trois derniers siècles*، ص ١٥٨، في كتاب المعلوف، عيسى اسكندر، تاريخ الأمير فخر

الدين المعني الثاني، جونبة، ١٩٩٧، ص ٢٠٠.

المعنيين. وأمّا الحافظ فقام بغزو غريفة وجوارها، وعندما حاربه أهلها عزّز قوّاته بثمانية آلاف مقاتل لتشتيت أهل الشوف. ولكّته عندما علم بأنّ نصّوح باشا الصدر الأعظم قد قُتل أخذ يسرّح عسكره ولاسيّما الجنود العرب منسحبًا من لبنان إلى دمشق. وقد أتاه بعدها خبر عزله في أواخر سنة ١٦١٤ فترك البلاد وتولّى مكانه محمّد جرّكس باشا في ولاية دمشق. أطلق هذا الأخير والدة الأمير وعقّل الشوف ووجهائه كما أرسل إلى فخر الدين فرمان العفو طالبًا منه العودة إلى لبنان.

وعندما اشتكى المعنيون أمر حسين سيفنا إلى محمّد جرّكس، أمره بأن يرفع يده عن كسروان، فسلمها إلى المعنيين كما طلب منه أن يوقف مساعدة الشيخ مظفر العنداري، وعدم حماية الأمير محمّد الأرسلاي في الشويفات، ولا بني الصوّاف المتعدّين على الشبانية. فلم يمثّل للأمير بل اتّفق مع الأمير شلهوب الحرفوشي وأمراء نحاش وجمعوا ألفي مقاتل لمقاومة المعنيين. فقام الأمير يونس بجمع ثلاثة آلاف رجل والتقى الفريقان عند عين الناعمة فانتهصر المعنيون، كما وقعت معارك في عبيه وأغميد وعين داره بين القيسية واليمينية وكان النصر للقيسية الذين هم من حزب آل معن. وفي اليوم التالي جرّد المير يونس حملة على بيروت فاستسلم أهلها كما قام بغزو مقاطعة الغرب والجرد والمتن. وعندما رأى حسين باشا سيفنا ما حصل رحل إلى بلاد عكّار وفّر مظفر العنداري إلى عكار أيضًا. فأمر الأمير يونس أبا نادر الخازن أن يسكن في غزير وولّى آل الخازن بلاد كسروان. وكان الأمير علي في غيبة والده الأمير فخر الدين قد استرجع المقاطعات التي استولى عليها والده من الفتوح شمالًا حتى عكّا جنوبًا.

هاجم فخر الدين ابن سيفنا عند عودته من إيطاليا، فهزّمه وهدم قصوره في عكار وصيدا ودير القمر، فلم يبق لابن سيفنا إلا أن يتصالح مع الأمير، فدفع له مبلغًا كبيرًا من المال كما تنازل له عن جبيل والبترون. ولما لم يدفع ابن سيفنا ديونه للدولة العثمانية عيّنت هذه الأخيرة واليًا جديدًا لطرابلس. فاستنجد بالأمير لتسلم المدينة من ابن سيفنا. فجهّز الأمير حملة لمساعدته. وعندما علم ابن سيفنا بالموضوع أخلّى طرابلس مع أسرته. فاستولى الأمير حينئذ على منطقة بشرى وضّمّها إلى إمارته. كما ضمّ منطقتي عكّار والضنية. وبعد صدام جرى بين جيوش الوالي وجيوش آل حرفوش من جهة وجيش الأمير من جهة أخرى وقع والي الشام مصطفى باشا في الأسر. إلا أنّ فخر الدين قبل اعتذاره فولّاه الوالي على البقاع. وبعد وفاة ابن سيفنا سنة ١٦٢٤ أسندت الدولة العثمانية ولاية طرابلس إلى فخر الدين الذي عزّز فيها الزراعة والصناعة. طمح فخر الدين إلى التوسّع فكانت صنفد تابعة لإمارته منذ عام ١٦٠٨ وكذلك الأمر بالنسبة إلى الجليل وعكّا والناصرّة وطبريا. وعندما انتصر على والي دمشق وآله هذا الأخير على عجّلون ونابلس وهوران. أمّا شمالًا فلقد استولى الأمير على سليمانيّة وحمص وحماة وحلب وأنطاكية. وما إن تسلّم زمام الحكم من جديد حتّى ترأس حملة دامت ثمانية أشهر فجال في سوريا وفلسطين مرّما التحصينات ومجهّزًا إيّاها بالأعتدة والرجال.

علاقاته العثمانية

بعد وفاة مراد باشا الصدر الأعظم سنة ١٦١٢ تسلّم الحكم نصّوح باشا عدوّ فخر الدين اللدود. فأقنعه أحمد باشا الحافظ بأن ينتزع سنجقيّتي حوران وعجّلون من حليفه فخر الدين. لكنّ فخر الدين أعادهما إلى سنجقيّتيهما بناء على نصيحة مستشاره الحاج كيوان. وللانتماء من الأمير أرسل الحافظ أحد رجاله بعراض إلى الباب العالي يشكو فيها بأنّ الأمير غزا بلاد الجولان وأتته محاصر في دمشق. فجهّز نصّوح باشا ألفي مقاتل من انكشارية الآستانة وأمر ولاة الأناضول أن يجزّدوا العساكر لمقاتلته. فاجتمع خمسون ألف مقاتل بقيادة أحمد باشا الحافظ. وكان قد قدم إليه من الأمراء اللبنانيين يوسف باشا سيفنا ويونس الحرفوش حاكم بعلبك والبقاع وأحمد وعلي

الشهائيان حاكما وادي التيم فقابلوه مستسلمين. وعندما لم يتمكّن من مقاومة الدولة العثمانية عاد فخر الدين إلى مسابرة الحافظ وأرسل إليه وفدًا من مشايخ صفد وصيدا وبيروت لحلّ الأزمة، ولكنّ الحافظ بالمقابل طلب من فخر الدين الاستسلام فلم يرضَ وصمّم على المقاومة. فجمع الأمير أحرابه ورؤساء العشائر ومشايخ البلاد وأعيانها في الدامور وحثّهم على القتال. ولما رأى أن لا جدوى من ذلك قرّر مغادرة البلاد وعقد معاهدات مع الدول الأوروبية. وكان قبل رحيله قد سعى إلى ترميم قلاعه وتحصين معاقله وجمع فيها عياله وأخصّ بطانته. وولّى حسين اليازجي على قلعة بانباس وحسين الطويل على قلعة شقيف تيزون. كما وسلّم ابنه الأمير علي إلى الشيخ عمرو، شيخ المفارحة، الذي وضع تحت أمرته أربعمئة سكماني. ثمّ أحضر أمامه أخاه الأمير يونس ووالدته السيّدة نسب ومشايخ الشوف وآل الخازن وأوصاهم بالتضامن. وسافر إلى إيطاليا سنة ١٦١٣ مع زوجته خاصكية والحاج علي الظافر أباها ومستشاره الحاج كيوان وخمسين من بطانته وخدمه وقنصل فرنسا في صيدا.

علاقاته الأوروبية

بعد خمسين يومًا من الإبحار، وصل فخر الدين إلى مرفأ ليفورنو في ١٣ تشرين الثاني ١٦١٣، وتوجّه إلى فلورنسا فاستقبله الغراندوق ووالدته وزوجته وكبار رجال الدولة وعيّنوا لنزوله القصر العتيق. وبعد التداول مع الأمير أرسل الغراندوق تقريرًا إلى سفيره في روما ليطلع عليه الخبر الأعظم البابا بولس الخامس. أجاب البابا أنّه يرغب في استرجاع بيت المقدس ولكنه يرى من الصعوبة التغلّب على الأتراك. وبالرغم من جواب الخبر الأعظم، قرّر الغراندوق إرسال بعثة من الخبراء والفنيين إلى لبنان لمعرفة المستجدات، فأرسل في ٢٣ تشرين الثاني ١٦١٣ وفدًا إلى فخر الدين لتزويده بالمعلومات اللازمة. وفي أواخر كانون الأول ١٦١٣ أقلعت السفينة ترنانا وعليها البعثة المذكورة. وبعد أن زاروا القلاع والموانئ والمدن والأماكن المحصّنة والمعقل، وتفقدوا الجيش وعتاده، عادوا إلى إيطاليا في ١٠ نيسان ١٦١٤. وكان على السفينة أفراد البعثة وبعض اللبنانيين كالشيخ يزبك بن الضعيف والشيخ خطّار الخازن وثمانية وعشرون من رجال الأمير وخدمه. تأثّر قوزما الثاني بالمعلومات التي تلقّاها من البعثة فأرسل وفدًا ليفاوض فخر الدين بإعداد حملة لإعادته إلى دياره. ولكن لما علم الأمير بأنّ ملوك أوروبا لم يقرّروا المشاركة في هذه الحملة، أجاب بأنّه لا يودّ أن يتعرّض رجال الغراندوق وخدمهم للقوات العثمانية، ولكنه طلب إيفاد خمسمئة رجل إلى لبنان لتقوية الجيش والحصون.

في تلك الأثناء أقبل نصّوح باشا ووزارته وعيّن مكانه محمّد باشا، صديق فخر الدين. فكتب الأمير إلى علي باشا، صهر مراد باشا صديقه القديم، فسعى هذا الأخير لدى الصدر الأعظم لإعادة الوفاق بين لبنان والسلطنة. فبعث علي باشا بالفرمان السلطانيّ لتسهيل عودة فخر الدين إلى بلاده على يد الجركسيّ محمّد باشا والي دمشق الجديد. تسلّمت والدته الأمير الفرمان بعد أن أُطلق سراحها فبعثت به إلى الأمير في توسكانا. ولكنّ الأمير كان قد تلقّى دعوة من نائب ملك إسبانيا في صقلية، الدوق داسونا، يعده فيها بالإهتمام والمساعدة فقبل الدعوة وترك توسكانا وذلك قبل وصول الفرمان. فأبحر إلى مسينا ووصل إليها في آب ١٦١٥. وبعد مرور عدّة أشهر ولم تأت المعونة من قبل الملك قرّر العودة إلى لبنان، وطلب من دوق صقلية أن يسهّل له طريق العودة. لكنّ الدوق كان يستعمل الأمير كسلاح يهدّد به السلطنة فمنعه من العودة. عندئذ طلب منه أن يقوم بزيارة سريعة لسواحل لبنان. فأذن له وأعطاه مؤونة ومبلغًا من المال. وعند وصوله لم يسمح له القبطان بمغادرة السفينة بطلب من الدوق، فاستقبل الوفود في المركب عينه، والتقى بأخيه يونس الذي أعلمه بكلّ ما حصل في غيابه.

مكث فخر الدين في نابولي لفترة طويلة وعندما علم أنّ الدوق داسونا لا ينوي مساعدته وكان قد استلم رسالة من والدته تحثّه على العودة، توجه إلى الدوق طالباً منه الحصول على ورقة الإجازة بعد أن أخبره بحاجة والدته في أن تراه. فأذن له بالسفر وعندما لم يحصل على ورقة الإجازة هدّد الدوق بنسف المركب حيث كان موجوداً. ولكن بعد حوار جرى بينهما حول أهمية عودته، أطلق سراحه وأعطاه إجازة السفر. فأبحر في أواخر أيلول ١٦١٨ بعد غيبة خمس سنوات وشهرين.

نهاية فخر الدين

سنة ١٦٣٣ جرّد الباب العالي حملة على فخر الدين بقيادة أحمد الكجك وأرسل جعفر باشا الأسطول العثماني إلى طرابلس وإلى بيروت لقطع طريق البحر إلى أوروبا. وبعد امداد الكجك بالقوّات المناسبة بلغ عدد الجيش ٧٦٠٠٠ مقاتلٍ. ولما لم يحصل فخر الدين على أية مساعدة من الكرسي الرسولي والبلاط التوسكاني، وبعد أن انضمّ السيفيون واليمنيون والحرفوشيون وآل طريه وفروخ برجالهم إلى قوات الكجك، وكان قد فقد والدته وكان لها من العمر ٨٧ عاماً، كما فقد ابنه علي في معركة قري حاصبيّا، لجأ إلى قلعة نيحا المعروفة بشقيف بينما بقي أخوه الأمير يونس في دير القمر واختبأ الأمير حسين ابنه الأصغر في قلعة المرقب. ويُقال إنّه بعد أن اهتدى الكجك إلى مخبئه، حاصر قلعة نيحا فلوّث مياه القلعة فاضطرّ فخر الدين إلى الهروب ليلاً إلى مغارة جزين. ووقع في قبضة جنود الكجك مملوك كان الأمير قد أرسله للتجنّس عليهم (ويجبر بعض المؤرّخين أنّ أحد أمناء سرّه قد خانه فأرسل إلى الباشا شابّاً يحمل كلمة يبيّن له فيها مكان المغارة التي لجأ إليها فخر الدين)، فعلم بمخبئه فسار إلى قلعة جزين وحاصرها. وقد أشار عليه صديق من البندقية أن يحموا الصخر الكلسي ويصبوا عليه الخللّ فيلين لنقر الإزميل. فحضر النقابون ونقبوا المغارة وقطعوا صخورها ووصلوا إلى قرب الأمير فارتجت الأرض من تحته وهدّده بنسف المغارة فاستسلم وقبض عليه الكجك وذلك في تشرين الثاني ١٦٣٤. قُتل الأمير في ١٣ نيسان ١٦٣٥ حنقاً في سجنه في الأستانة بأمر من السلطان مراد الرابع. حنقَ ثمّ قُطِعَ رأسه. ومن المؤرّخين من يشير إلى أنّه تمّ قتل نساء فخر الدين الأربعة وأولاده حسين، منصور، وحسن، وحيدر. ولم يبقَ من ذريّة فخر الدين سوى الأميرين فرقماز وأحمد - ولدي الأمير علي - والأمير ملحم ابن الأمير يونس.

تحقيق لبنان الكبير

إعادة الوحدة اللبنانيّة

سعى الأمير في معظم أعماله إلى إعادة الوحدة إلى مختلف المقاطعات اللبنانيّة من خلال ضمّ المقاطعات بهدف تحقيق لبنان الكبير. وقد توسّع برّاً وانفتح صوب البحر من خلال امتلاك الشواطئ. فاستولى غرباً على صيدا وصور وعكا وبيروت وغزير... و جنوباً على المقاطعات الممتدّة من الجليل إلى خليج العقبة (صنفد، نابلس، عجلون، بانياس، الحولة وطبريا وأسفل جبل الكرمل والطور والناصرّة وقانا الجليل...). وأمّا شرقاً فلقد استولى على البقاع حتّى حمص فحاصبيّا وراشياً ووادي التيم وصولاً إلى ما وراء حرمون حتّى حوران ونواحي الشام. من أبرز سفرائه نذكر السماعنة والعاقوري والحقلاي وغيرهم.

عمد فخر الدين إلى تعزيز ثروة لبنان وإنعاش الزراعة والصناعة والتجارة فيه. وقد بعث الروح الوطنيّة وجعل من لبنان منطقة آمنة مستقرّة. ولم يكن يوقّع اسمه إلا مرفقاً بعبارة "أمير لبنان" بعد أن رفض الاعتراف بلقب "أمير البرّ" الذي أعطاه إيّاه السلطان مراد الرابع بهدف تدوير اسم لبنان تدريجيّاً.

من جهة أخرى عزّز فخر الدين قوّة لبنان العسكريّة وقد بلغ عدد جيشه مئة ألف مقاتل. كما ابتاع السلاح والعتاد واستقدم الخبراء. وقد زوّده أمير توسكانا بكميّة كبيرة من القذائف وبعث إليه المحاربين والمهندسين ليعملوا على تجهيز القلاع. نضيف إلى ذلك أنّ فخر الدين قد علّم اللبنانيين صناعة صبّ الأسلحة الثقيلة وبنى ورّم الحصون والقلاع التي تجاوزت الأربعين، كما أنّه فتح لبنان على الغرب. يذكر الأحمد^٦ أنّه كان لدى الأمير ملفّ خاصّ بجميع رجاله وكان لديه سجلّ أُحصيت فيه الأشجار المثمرة في إمارته. وكان يعرف عدد الثيران والأبقار والماعز والغنم. وكانت جميع أعماله تسجّل خطياً للعودة إليها عند الحاجة.

تحالفاته في المنطقة دفاعاً عن لبنان

سنة ١٦٠٥ عيّن الباب العالي أحمد باشا الملقّب بالحافظ والياً على دمشق. وبعد أن استقرّ أخذ يرسل تقارير تباعاً إلى الآستانة طالباً من الباب العالي التدخّل للحدّ من سلطة فخر الدين. فأولته الدولة العثمانيّة قيادة قوّة الأناضول وكلفته بالسيطرة على الأمير. وعندما رأى هذا الأخير نفسه بين هذين العدوين، عقد مع علي باشا جانبولاد، والي حلب، محالفة هجومية دفاعية للحدّ من قوّتهما. استغلّ ابن سيفاً تمرد علي جانبولاد على الدولة العثمانيّة فعرض خدمته على والي الشام لإزاحة جانبولاد عن ولاية حلب، فوضع الوالي تحت تصرّفه قوات دمشق. طلب علي باشا المساعدة من فخر الدين الذي جمع قوّته وتصادم مع ابن سيفاً عند نبع العاصي قرب حماه. وبعد انتصار فخر الدين وجانبولاد على جيش الشام هرب ابن سيفاً ولجأ إلى أحمد طريه صاحب غزّة طالباً المساعدة. فقام هذا الأخير بتجهيزه بحملة عسكريّة إلى دمشق. ولما علم فخر الدين وجانبولاد بما يضمّر لهما قصدها إلى دمشق. والتقى الجيشان في نواحي عزّاد في ١٦ تشرين الأوّل ١٦٠٦ وكان ابن سيفاً قد تخلّف عن الحضور مع العسكر الدمشقي إلى ساحة القتال، لذا عوضاً عن التصادم والقتال استقبلت دمشق فخر الدين وحليفه جانبولاد بكلّ ترحاب وقدّمت أموالاً إلى جانبولاد بينما تسلّم فخر الدين منطقة البقاع التي سلّمها بدوره إلى ابن الحرفوش، حليفه.

التخلّص من طغيان العثمانيين

بلغت سلطة المعنيين أوجها في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير الذي سعى إلى التخلّص من طغيان العثمانيين بكلّ الطرق الممكنة. وبعد محاولته لاسترداد لبنان بكلّ مقاطعاته، توسّع بعلاقاته نحو الخارج فوَقّع عام ١٦٠٨ مع فردينان دوق توسكانا الأكبر للحدّ من ظلم العثمانيين. وقد رفض الباب العالي هكذا معاهدات فعهد سنة ١٦١٣ إلى محاربه فلجأ فخر الدين وعائلته إلى إيطاليا حيث أقام مدّة خمس سنوات (١٦١٣ - ١٦١٨) ثمّ عاد بعدها إلى إمارته وأرغم الباب العالي سنة ١٦٢٤ على الاعتراف به سيّداً على لبنان تمتدّ سلطته من حلب وفينيقيا وتدمر في الشمال حتّى رمل العريش في الجنوب ومعان وبادية الشام في الشرق.

^٦ الأحمد عزيز، ...، ص ٦٤.

عمد فخر الدين إلى التسلّح والتحصين وسعى إلى توطيد أركان إمارته فتحالف مع الإرسلاّنيين وآل سيفا والقيسيّين واليمينيين والحرفوشيّين والشهابيين وآل جانبولاد. كما حالف مشايخ حوران وأمراء عجلون والتفّ حوله مقدّمو بني الصواف وأبي اللمع ومشايخ الجرد. أضيفُ إلى ذلك استرداده صيدا وبيروت وسنحقيّات عجلون ونابلس والبقاع بعد أن قضى مراد باشا، والي الشام، على ابن الفريخ، خصم الأمير، وذلك سنة ١٥٩٣ في قلعة دمشق.

ازداد فخر الدين قوّة من خلال حلفائه فقضى سنة ١٥٩٨ على يوسف باشا سيفا في معركة نهر الكلب، واستولى على كسروان، واحتلّ بيروت ولكن ما لبثت أن عادت بيروت وكسروان لابن سيفا، بعد حوالي السنة تقريبًا، بعد أن تدخل الأمير محمّد الإرسلاّني ابن حمي فخر الدين لاستعادتهما.

أبرز منجزاته

بناء جيش قويّ

بنى فخر الدين جيشًا قويًّا وكانت قوّاته المسلّحة تزداد حسب اتّساع ولايته. حين أفلح إلى إيطاليا كان جيشه يعدّ عشرين ألفًا ولكنه بلغ في نهاية حياته مئة ألف. وقد كان يتولّى القيادة العامّة بنفسه أو ينتدب إليها ابنه الأمير علي أو أخاه الأمير يونس. وفي نهاية عهده جعل أبا نادر الخازن قائدًا عامًا لجيشه. وكان هذا الجيش يتألّف من مشاة وفرسان: كان الفرسان يلبسون ألبسة سمكية ويلتقون بجبّة واسعة، ويحملون البنادق ذات القداحة أو البواريد الهندسيّة، ويلقون السيوف على جنبهم، ويمسكون ترسًا، ويمتطون الخيول، ويسرون جماعات بلا بوق. أمّا المشاة فكانوا يلبسون ألبسة خفيفة ويحملون البنادق والسيوف العريضة النصال ويمشون وراء الراية.

وكان هذا الجيش مقسمًا إلى ثلاث فئات: الجيش الوطنيّ ويتألّف من اللبنانيّين دون تمييز بين الطوائف، وقوامه ثلاث فرق تقاات تحت ألوية أمرائها ومقدّميها ومشايخها، ويخضع قوّادها لأوامر القيادة العامّة؛ الجيش المساعد ويتألّف من الأمراء اللبنانيّين من جميع المذاهب كآل شهاب السنيّين في وادي التيم، وآل حرفوش الشيعيّيّين في بعلبك، وقبائل البدو في عجلون وحوران، وكان يستنجد بهم في حملاته؛ والجيش المأجور ويتألّف من جنود مستأجرة من جماعات مرتزقة يدعون السكمان كان يقيهم فخر الدين تحت السلاح.

ويذكر أنّه كان يجّهز جيشه وقلاعه بأحدث الأسلحة، ويأتي بالخبراء الأوروبيّين لتنظيمه وتدريبه. وكان لدى هذا الجيش حيوانات لحمل الأثقال وجرّ المدافع.

بناء القلاع وترميمها

بنى فخر الدين قلاعًا عدّة ورّم قلاعًا أخرى كانت معظمها فينيقيّة الأصل أعاد تشييدها أو ترميمها الصليبيّون.

من أهمّ القلاع التي بناها والتي ذكرها عزيز الأحذب في كتابه **فخر الدين، مؤسس لبنان الحديث**:

- قلعة حلب: بناها سنة ١٦٢٥ مقابل المدينة على كتف المروج.
- قلعة صلخد أو سلخد: بناها سنة ١٦٢٥ في حوران.
- قلعة صور: ادّعى قنصل فرنسا بصيدا أنّ الأمير أذن للتوسكانيين في أن يبنوا هذه القلعة في صور سنة ١٦١٩.
- قلعة طرابلس: ذكر الأب روجيه ودو لاروك أنّها غير قلعة الصليبيين وقد بناها الأمير تحت طرابلس.
- قلعة قبّ الياس: بناها سنة ١٦٢٥ في البقاع.
- قلعة القليعات: بناها سنة ١٦٢٧ في جون طرابلس.
- قلعة بيروت أو برج الكشاف: بناها سنة ١٦٣٢ في بيروت.
- حصن المهريج: كان تلّ المهريج أو تلّ الريح مرتبطاً للصمص في صغد فبنى فيه الأمير عمارة محصنة سنة ١٦١٩ (١٦١٨ بحسب القرألي^٧).
- مغارة الحمام: بناها سنة ١٦٣١ قرب صغد.
- قلعة ابن معن: بناها قرب تدمر.
- نضيف إلى اللائحة قلعة أنطاكية: يذكرها بولس قرألي في كتابه **فخر الدين المعني الثاني - حاكم لبنان**. بناها فخر الدين سنة ١٦٢٥ وهي قلعة تشرف على المدينة^٨.

من أهمّ القلاع التي رُمّها:

في بيروت:

- البرج: ساحة البرج أو ساحة الشهداء حالياً.

في الشمال:

- قلعة طرابلس (سان جيل): قلعة شهيرة للصليبيين استولى عليها الأمير سنة ١٦٢٤ مع إيالة طرابلس.
- برج البحصاص: استولى عليه الأمير سنة ١٦٢٤ (١٦٢٧ بحسب القرألي^٩) وتقع في شمالي طرابلس.
- قلعة بجعون: استولى عليها الأمير سنة ١٦٢٣ وتقع في قضاء الضنيّة.
- قلعة بشرّي: استولى عليها الأمير سنة ١٦٢٢.
- قلعة عريميّة: تقع فوق وادي الأبرش في طرابلس.

في الجنوب:

- قلعة صيدا: تقع في الميناء وتتصل باليابسة بجسر من حجر.
- قلعة الشقيف، أرنون: دعاها الصليبيون بوفور.

^٧ قرألي، الأب بولس، **فخر الدين المعني الثاني - حاكم لبنان**، دار لحد خاطر، بيروت، ١٩٩٢، ص ٥٨.

^٨ المرجع السابق، ص ٨١.

^٩ المرجع نفسه.

- قلعة الدبّية: برج في بلاد بشارة قُبض فيه على الأمير يونس سنة ١٦٢٣.
- قلعة جزّين: مغارة محصّنة في جوار واديهها. لجأ إليها فخر الدين سنة ١٦٣٤ وقُبض عليه فيها. وهي غير قلعة نوحا الواقعة شرق البلدة.
- قلعة تبنين: سمّاها الصليبيّون طورون.
- قلعة أبو الحسن: من قلاع الصليبيّين وتقع فوق نهر الليطاني.
- قلعة مارون: من أعمال الصليبيّين وتقع بجوار دير كيفا من مقاطعة صور.

في البقاع:

- قلعة بعلبك: من عهد الفينيقيّين استولى عليها الأمير بعد معركة عنجر (رمّمها سنة ١٦٢٤ بحسب الصفدي^{١٠})
- برج الهرمل: المعروف أيضًا ببرج القيزانيّة.
- حصن اللبوة: يحمي مدخل البقاع من الشمال.

في جبل لبنان:

- قلعة جبيل: قلعة فينيقيّة انتزعها الأمير من يوسف سيفا سنة ١٦١٨.
- قلعة سمار جبيل: قلعة فينيقيّة فوق البترون انتزعها الأمير من يوسف سيفا سنة ١٦١٨.
- حصن غزير: انتزعه الأمير من يوسف سيفا سنة ١٥٩٨.
- قلعة نوحا أو شقيف تيرون.

في أقصى الشمال:

- قلعة بانياس (أو صبيّه بحسب القرألي^{١١}): استولى عليها سنة ١٦١٠.
- قلعة تدمر: تعرف بقلعة ابن معن. ويشير القرألي أنّها غير القرية المعروفة بهذا الاسم بقرب العاقورة في جرود جبيل (ص ٨٢).
- حصن الأكراد (أو قلعة الفرنجي بحسب القرألي^{١٢}): تعود إلى أوائل العهد الفينيقيّ وقد أعاد بناءها الصليبيون. ويشير القرألي أنّ الأمير حاصرها سنة ١٦١٨ ورجع عنها صلحًا ثمّ تسلّمها من أولاد يوسف سيفا باشا بعد موته.
- قلعة السليميّة: تقع في الشمال الشرقي من حمص. استولى عليها الأمير سنة ١٦٢٥.
- قلعة الشماميس: حصن يقع بالقرب من حلب.
- قلعة المرقب: قلعة تقع بين طرطوس واللاذقيّة.
- قلعة صافيتا: دعاها الصليبيّون القصر الأبيض.
- قلعة صهيون: من أعمال الصليبيّين.

^{١٠} الخالدي الصفدي، أحمد بن محمد، ...، ص ٢٤٣، في قرألي، الأب بولس، ...، ص ٨١.

^{١١} قرألي، الأب بولس، ...، ص ٨١.

^{١٢} المرجع السابق، ص ٨٣.

■ قلعة مسقية: من قلاع الصليبيين وتقع بين صافيتا وحصن الأكراد.

■ قلعة مصياف: تقع بين المرقب وحماه.

في أقصى الجنوب:

■ حصن جنين: يقع في مقاطعة نابلس وقد استولى عليه الأمير سنة ١٦٢٣.

■ قلعة حيفا: استولى الأمير على برجها سنة ١٦٢٣ ثمّ أخلاه صلحاً فهدمه ابن طرايه.

■ قلعة السلط: تقع في مقاطعة عجلون وقد استولى عليها الأمير سنة ١٦٢٣.

■ قلعة الشويك: تقع في سنجقية عجلون.

■ قلعة عجلون: ملكها الأمير عندما صارت السنجقية إليه.

خوض معارك عدّة

من أبرز المعارك التي خاضها الأمير فخر الدين:

■ معركة مجدل عنجر:

جرت في الأول من تشرين الثاني ١٦٢٣ وسجّل فيها فخر الدين انتصاراً على العثمانيين، وأسر مصطفى والي الشام فأرغمه على الإعتذار ليطلق سراحه وقد فعل. فتحت هذه المعركة الآفاق للتوسّع جنوباً حتى مقاطعة غزة وتوابعها مع سناجق صفد وعجلون ونابلس واللجون (محافظة جنين - فلسطين)، وشمالاً حتى حلب، وشرقاً حتى مناطق تدمر، فالتّسع دائرة نفوذ الأمير واستعاد علاقاته بدول الغرب.

■ معركة نهر الكلب:

جرت هذه المعركة عام ١٥٩٨ وقد تغلّب فيها الأمير على آل سيفنا، واستولى على كسروان، واحتلّ مدينة بيروت، وضبط أرزاق آل عسّاف.

■ معركة جونبة:

وقعت عام ١٦٠٥ وقد تغلّب فيها الأمير على آل سيفنا فوّلّى الأمير الشيخ أبا نادر الخازن حكم كسروان، والشيخ يوسف السلماني حكم غزير، والأمير منذر التنوخي ولاية بيروت.

■ معركة حماة:

جرت عام ١٦٠٦ تغلّب فيها فخر الدين وحليفه علي جانبولاد على ابن سيفنا.

■ معركة عزّاد:

وقعت في ١٦ تشرين الأول ١٦٠٦ بالقرب من دمشق وتغلّب فيها الأمير على جيش الشام الذي وصل عدده إلى أكثر من عشرة آلاف رجل.

■ معركة المزاريب:

استنجد حليفاً فخر الدين حمدان وعمر بالأمير، فأرسل ابنه الأمير علي يرافقه أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل، فغزوا بلاد العرب، والتقوا بعسكر الشام في المزاريب، فهزموهم وأخذوا منهم نحو مئة رأس خيل.

- **معركة عبيه، أغميد، عين داره والناعمة:**
جرت في ١٤ آب ١٦١٦ هـ فيها الأمير علي ابن فخر الدين ابن سيفا واسترجع ولاية بيروت وكسروان والفتوح.
- **معركة أرنون وبانياس:**
جرت بين الحافظ الذي ترأس جيشاً زاد عن خمسين ألف مقاتل وسكان قلعة أرنون وحصن بانياس. فأقام حصاراً دام ستين يوماً ولكنه لم يقوَ على فتحهما.
- **معركة غريفة:**
وقعت خلال محاولة والي دمشق أحمد باشا الحافظ غزو غريفة وجوارها وقد خسر حينها ٦٠٠ قتيل.

تشجيع الزراعة

شجّع الأمير فخر الدين الزراعة فأمر بزراعة الحبوب على أنواعها من قمح وأرز وفول وغيرها من الحبوب وقد عُني أيضاً بزراعة الكرمة، وتجويد إنتاج العنب الصالح للخمر. وشجّع أيضاً زراعة الخضراوات، فعالج القنبيط حتى جعل من بزره بضاعة للتصدير إلى أوروبا، فضلاً عن الحنّ الأبيض. واهتمّ بزراعة الأشجار المثمرة، وجرّ المياه إليها فأعاد بساتين الموز والليمون، لاسيّما البرتقال، على السواحل اللبنانية من طرابلس حتى صور إلى ازدهارها. كما واهتمّ بأشجار الرمان والزيتون، وقد بلغت شهرة الزيتون والزيت والصابون اللبناني الأسواق العالمية، وكان كبار أمراء أوروبا يتبادلون الهدايا من هذه المنتجات اللبنانية. وكان القطن أيضاً من المحاصيل المهمة في لبنان، ومن أجود أنواع القطن في العالم، خصوصاً في منطقة دير القمر التي كانت تُعتَبَر من أهمّ مراكز زراعة القطن وحلجه ونسجه وغزله. كما شكّلت زراعة قصب السكر مورداً مهمّاً للبنان، خصوصاً في طرابلس وصور وصيدا وعكا، وكان في هذه المدن الكثير من المعاصر ومعامل السكر. أعاد فخر الدين أيضاً زراعة التوت التي كانت قد انقطعت في لبنان، لأنّ اللبنانيين كانوا يقطعون أشجار التوت لأنّ الأتراك كانوا يستخدمونها في صناعة الأقماس. رمّم فخر الدين أيضاً الخراب، وشجّر الأماكن المهجورة، وقد كلّف المهندس ستيوي تنسيق حرج بيروت المشهور المعروف بحرج فخر الدين.

عني فخر الدين بالحيوانات النديّة كالبقر والجمال والماعز والغنم، وسعى في تحسين نسل البقر بوساطة الأجناس التوسكانية، واستقدم معها عدداً من الفلاحين لكي يحسنوا تربيتها. كما وحسّن نسل الكلاب، ككلاب الصيد وكلاب الحراسة، فاستقدم نماذج من الجنس السلافي والبولوني الضخم والكورسيكي والإنكليزي، وحسّن أيضاً نسل الخيل، وسعى وراء الجياد الأصيلة. وقد بنى في قصره، في بيروت، اصطبلات متقنة.

تشجيع الصناعة

لاقت الصناعة تشجيعاً كبيراً عند فخر الدين، فكان اللبنانيون يتقنون صناعة الملابس الصوفيّة والقطنيّة والحيريّة وغيرها. وقد اعتنى فخر الدين بتنشئة الخبراء الفنيّين بتربية دود القزّ، ومعالجة الشرائق والخیوط، فسُمّي لبنان بالبلد الحريري. وكان استخراج الحرير من أهمّ الصناعات اللبنانية لجماله ومئاته، وكان يستهوي أصحاب النسيج في أوروبا. فبات الحرير يشكّل إيراداً يعادل ثلث دخل ضريته في

ذلك الوقت، فضلاً عن المنافع التي كان الفلاح يجنيها من الدودة والورق التشريبيّ وقشور القضبان. أمّا الدود المخنّق فكان يُعتبر من أفضل الأسمدة للتربة. كما وانتشرت في صيدا صناعة النسيج من الحرير والقطن والكتّان، وكان يكفي إنتاجها للاستهلاك المحليّ، ويصدّر منها إلى أوروبا.

ومن أبرز الصناعات أيضاً في عهد الأمير فخر الدين صناعة الزيت والصابون، وخصوصاً الطرابلسي والنابلسي، فضلاً عن صناعة الكتّان. فكان اللبنانيون يصنعون منه الخيطان وقماش القمصان، وقماشاً يصنعون منه الياقات. وكان اللبنانيون يستخرجون رماداً من حشيشة عُرفت بالإشنان أو الحرض، وهي نبات برّيّ أغبر الورق فيه ملوحة، يكثر في السواحل اللبنانيّة والمرتفعات المتوسطة القريبة من البحر. وقد كان يُستعمل للغسل والتنظيف بدل الصابون. فكانوا يحرقونها في حفر خاصّة، ويجمعون الرماد، ويصدّرونه إلى البندقيّة، وإلى ممالك أوروبا لتصنع منه الزجاج النقيّ كالكريستال الصافيّ والبُلور الملّون. فأنشأ له الأفران الخاصّة قرب صيدا وطرابلس. كما وازدهرت أيضاً صناعة العسل والشمع والعنب المجفّف والخمر والخزف والفخّار وغيرها من الصناعات.

تشجيع التجارة

قام فخر الدين بتنشيط التجارة فحمى التجّار، وقدم لهم التسهيلات والمميّزات والحصانات. وقد شيّد في صيدا بناءً مؤلّفاً من معتي غرفة للتجّار الأوروبيّين، وبنى مخازن لبضائعهم. وكان تجّار البلدان المجاورة يتركون مراكز أشغالهم ويقصدون لبنان بحثاً عن حماية الأمير. ومن أهمّ العوامل التي أدّت إلى ازدهار لبنان: فتح الطرقات وتعبيدها وتشبيد الجسور، تأمين الشواطئ من قراصنة البحر وحماية التجّار من لصوص البرّ، السماح للفرنسيّين ببناء خان لتجارهم في صيدا، السماح لبعض الدول بإنشاء قنصليات في صيدا، التعامل مع جميع الدول الأوروبيّة سواء كانت صديقة أو عدوّة الدولة العثمانيّة، التعويض على التجار الأوروبيّين بعض خساراتهم لاسيّما إذا كانت قد أتت عن طريق مظالم الحكّام أو مطامع القرصان؛ إضافة إلى أنّ سوء معاملة الأتراك في حلب للتجّار أدّى إلى انتقال النشاط إلى لبنان، فأصبح مركزاً هاماً للتجارة والتوزيع لجميع أنحاء الشرق الأدنى.

■ أهمّ الصادرات:

- الكتّان والصوف والقطن الخام والمغزول.
- الحرير من أبيض وأصفر.
- الأقمشة القطنيّة والحريريّة ونصف الحريريّة والدمقس.
- الرماد (وملحه بحسب القرألي^{١٣}) والصابون والصمغ وغير ذلك.
- القمح والأرز وغير ذلك.
- يضيف القرألي إلى هذه اللائحة الزجاج^{١٤} (حامض كبريتي).

^{١٣} المرجع السابق، ص ٦١.

^{١٤} المرجع نفسه.

■ أهمّ الواردات:

- الجوخ والمحمل والحرير بألوانه وأشكاله.
- الورق الخشن والمصقول.
- قضبان الفولاذ والسلاسل والأشرطة والمسامير والسكاكين.
- الأجراس الصغيرة والشمعانات.
- القبعات والعطور.
- الذخائر الحربيّة والبارود والرصاص.
- ويزيد قرألي على اللائحة النقود المضروبة حديثاً برسم الغراندوقة، والقرمز (الأرجواني)، والأقداح والصحون والدوارق البلوريّة والزجاجيّة، وحلقات الشّيّ والمواس^{١٥}.

التنظيم الماليّ

ضبط فخر الدين جباية الضرائب، وكان يجمع الأموال المفروضة ليرسلها إلى السلطان، والباقي يُرسله إلى خزينته، ويُنفق إمّا لزيادة رواتب الجنود، وإمّا لتعزيز الموارد في كافّة المجالات، كالزراعة والصناعة وبناء القصور والجنائن وإنشاء الجسور وترميم القلاع. وكانت الجزية والمواشي والأشجار والجمارك تُعتبر من أهمّ أبواب الدخل، والجيش والحاشية والأشغال العامّة والتوفير من أهمّ أبواب النفقات.

النهضة العمرانيّة

عمل فخر الدين على نشر أساليب الهندسة الإيطاليّة في بلاده، لذا طلب إلى بلاط توسكانا إرسال بعثة من الفنيّين ليعملوا على تطبيقها في بلاده. وعندما وصلوا إلى لبنان، في أيلول ١٦٣١، أشرفوا على غرس الأشجار، وتنظيم الحدائق، وجرّ المياه إلى المدن والبساتين، وتجفيف المستنقعات، وبناء المساطب والجلول في الأراضي الجبلية المنحدرة. فضلاً عن ذلك أشرفوا على تشييد القلاع وبناء القصور.

اهتمّ فخر الدين ببناء القلاع، وقد عزّزها بمصانع البارود ومعامل الأسلحة، كما أنشأ الحمامات والمخارير. واهتمّ أيضاً ببناء الجسور لأهميّتها في حركة التجارة والمرور والتنقل السريع، فأمر ببناء جسر على نهر الأولي، وجسر فوق نهر الكلب. كما أمر بإصلاح نهر بيروت، وبناء جسر الليطاني قرب دورس. وقد ركّز اهتمامه أيضاً على بناء القصور، وترميم القلعة منها، وتجهيزها بالرياش والمعدّات. وقد أقام في البقاع صرحاً كبيراً أمام باب دمشق صُنعت بوابته من الرخام الأبيض، أُبني به من المدن الساحليّة، ومن الحجارة ذات اللون الأحمر المأخوذة من مقالع البقاع.

وعمّ، في تلك الأيام، فنّ بناء واجهات المساكن من ثلاث قناطر لدخول الهواء والشمس، وبناء السطوح القرميديّة المبرّجة، والأروقة المتتابعة فوق عقود الأقبية بحيطانها الكلّين السميكة، إضافة إلى بناء الشباييك الزجاجيّة المطلّة على الخارج، المزودة الطيقان والمقوّسة

^{١٥} المرجع نفسه.

الحنايا، تتوسطها الشمعة النحيفة المزخرفة التاج، وتشرف على الحوض المعلق المسمّى بالمدلون المزدهر بالحبق والعطر والقرنفل والمردكوش، والمطلّ على الساحة والسوق والطريق.

ومن أهمّ المناطق العمرانيّة نذكر:

بيروت:

عندما اتخذ الأمير بيروت عاصمة للبنان اهتمّ بعمارتها وتزيينها، وبنى فيها قصره عام ١٦٢٢، وأحاطه بالجنانين، وقد بنى حولها ممّرات من الحجر، ومجاري مياه للسقي، ودعم القصر ببرج لكشف البحار والسواحل والجبال التي تشرف عليها. إضيف حديقة قصره التي غنيّ بنائها وأقام جنيّة للحيوانات عُرفت بخان الوحوش.

صيدا:

سعى فخر الدين إلى تجديد مدينة صيدا، وترميم أبنيتها وقلاعها، وغرس الحدائق فيها، ورصف الطرقات وتشبيد الأبنية. وقد حسّن مرفأها، وروّج تجارتها، ففتح الشارع الممتدّ من البوّابة الفوقا إلى البوّابة التحتا. بنى في صيدا أيضًا القصر الذي كان دار الحكومة القديم، وقد زُيّنت جدرانها بالنقوش والرسوم، وفيها آيات قرآنيّة وحكم أدبيّة بحظّ مذهب. ومن المباني المهمّة في صيدا نذكر دار أولاد رفله دبّانة، وقصر الصليبيّين الذي رمّمه وجعله مسكنًا لابنه عليّ.

دير القمر:

كانت هذه المنطقة عبارة عن غابة وسطها دير خراب، وصورة للقمر منحوتة في صخر ما يزال في كنيسة سيّدة التلّة، لذا سمّيت دير القمر. بعد أن نقل إليها المعنّيون كرسي ولايتهم من بعقلين، كبرت وأصبحت من المناطق الجبليّة المهمّة. وقد تميّزت أبنيتها بالحجارة الصفراء: فقصر الجيش المعروف بالخرج الذي شيّده فخر الدين بعد عودته من إيطاليا تميّز بالحجارة الصفراء التي نقلها جنوده من قصور عكار وفاء لقسمه. ومن الأبنية المشغولة بالحجارة الصفراء نذكر قصر الأمير يوسف الشهابي، وبيت الأمير ملحم والده، وقصر الأمير أحمد شقيق الأمير يوسف، وقصر آل باز الذي كان لحفظ خزائن المال والحليّ والجواهر والأسلحة الثمينة.

أمّا حمّام المعنّيين ففيه نحو عشرين غرفة جُحّرت إليها المياه، وفُتِح لها نفق تحت الأرض طوله ١٥٠ مترًا، وهو متّصل بقصر المعنّيين، يمشي فيه الإنسان منتصبًا، ويسمّيه أهل الدير حاليًّا القباب السابع. وفي الحمّام قبة المشانيق وهي مرّيع طوله ١٥ ذراعًا في عرض مماثل وارتفاع ٥ أمتار، وكانت مدفنًا للمعنّيين، ثمّ للشهابيّين ثمّ مشنقة زمن الأمير يوسف.

النهضة الفكرية

كان فخر الدين شديد الميل إلى العلوم، كاللاهوت والفلك والكيمياء، كما كان محبًّا للشعر والموسيقى والرسم. فقد كان يستقبل الشعراء والأدباء في مجالسه لسماع قصائدهم والأخذ بحكمتهم. وقد استقدم العلماء والفنّانين من بلاده ومن أوروبا أيضًا ليعملوا معه.

وعندما رأى ضعف المستوى الثقافيّ في لبنان، أرسل الطلاب الموارنة إلى روما حيث المدرسة المارونيّة التي تحدف إلى تثقيف رجال الدين ليتعلّموا اللغات الأجنبية والعلم. وقد توالى بعثات الطلاب في عهده، وعاد أكثر أفرادها إلى لبنان، فأنشأوا المدارس للأحداث، ومطبعة في دير قزحيّا، قرب طرابلس، وهي أوّل مطبعة دخلت لبنان عام ١٦١٠، وقد جُهِزت لتطبع بأربع لغات بإشراف المعلّم بسكالي الإيطاليّ، والشّماس يوسف بن القسيس داود الكرمسداني من بيت تمينة. وكان كتاب مزامير داود أوّل كتاب مطبوع في الشرق الأدنى سنة ١٦١٠ باللغتين العربيّة والسريانيّة. وقد تمّ جمع عدد كبير من المخطوطات الشرقيّة، فضلاً عن عدد مهمّ من الكتب التي تُرجمت أو أُلّفت. وظلّ بعض أفراد البعثات اللبنانيّة في أوروبا حيث جمعوا المخطوطات الشرقيّة، وحفظوها في مكتبات روما. وألّف بعضهم الكتب والأبحاث، وأدخلوا أساليب اللغات الأوروبيّة إلى اللغات الشرقيّة. ونذكر من هؤلاء الأب جبرائيل الإهدي الذي عُيّن أستاذاً في روما، ثمّ أصبح ترجماناً للملك لويس الثالث عشر سنة ١٦١٤، وإبراهيم الحاقلاي، ويوحنا الحصري، وقد ترجموا معاً الأسفار المقدّسة وضبطوها. ونذكر أيضاً يوسف سمعان السمعاني.

ومن الإرساليّات الأوروبيّة التي جاءت إلى لبنان المرسلون الكبوشيّون، وقد أتوا من فرنسا، وكانوا أوّل من أسّس ديراً لهم في بيروت ودمشق وطرابلس وحلب، وأولهم الأب جوزيف الكبوشيّ، مستشار الكاردينال ريشيليو وزير الملك لويس الثالث عشر الذي لعب دوراً هاماً في تجهيز حملة أوروبية من ثمانين ألف متطوّع للدفاع عن لبنان، ومؤازرة الأمير في تحطيم النبر العثماني عن الشرق. فساعد في تأسيس المطبعة في بيروت، ونشر الكتب، وفتح المدارس. وقد لحقت هذه البعثة المذكورة إرساليّات أخرى، فرنسيّة وأميريكيّة، وغيرها.

معاهدات فخر الدين

كثرت المعاهدات والمراسلات بين الأمير فخر الدين وبعض الدول التي كان لها علاقات تجاريّة مع الإمارة اللبنانيّة آنذاك. وقد جدّد المعاهدات التجاريّة مع الأوروبيّين وسهّل لهم التجارة. ويذكر عيسى اسكندر المعلوف في كتابه **تاريخ فخر الدين المعني الثاني**^{١٦} أنّ سجّل المعاهدات والمراسلات ما زال موجوداً في أرشيفات دولة فلورنسا، وبعضها بخطّ فخر الدين وتوقيعه تحت رقم ٤٢٧٦. ويشير إلى أنّ المؤرّخ جيوفاني مارتيني (إكليريكيّ وُلد في فلورنسا سنة ١٧٥٠) كان مطلعاً على الوثائق والمعاهدات التي تمّت بين الأمير وحكومة جزر إيطاليا، لاسيّما ما كان محفوظاً في خزانة فلورنسا الأميريّة، لأنّه كان قيّمها ولقد قام بنشر عدّة وثائق ومراسلات. ويشير أيضاً أنّ الأمير كان يراعي معاهدات الدولة الفرنسيّة والحكومة، وكان له معتمدون في أوروبا للمفاوضات والمحاسبات والمراسلات، فوسّع نطاق المعاهدات وقام بإنشاء القنصليّات. وقد عُقدت في أيّامه معاهدات عدّة بين الدولة العثمانيّة وباقي الدول، فجدّدت في أيّام السلطان أحمد المعاهدة مع فرنسا سنة ١٦٠٤، ومع بولونيا سنة ١٦٠٩، وعُقدت محالفات تجاريّة مع هولندا سنة ١٦١٢، ومع غيرها من الدول.

^{١٦} المعلوف، عيسى اسكندر، ...، ص ٢٧٤.

ومن المعاهدات نذكر معاهدة تجاريّة حربيّة، تمّت سنة ١٦٠٩، بين الأمير فخر الدين والدوق فرما الثاني التوسكاني. ونذكر أيضاً معاهدة تمّت في ٢٤ ك ١٦٣٣ بين فخر الدين والبابا أوربانوس (وقد تمّ انتداب المطران جرجس مارون رئيس أساقفة قبرص الماروني ليكون سفيراً لدى البابا)، وهي التقرير الموجز الذي رفعه سيادة المطران جرجس مارون الماروني إلى قداسة البابا بشأن فتح مملكة قبرص ومدينة القدس.

مراسلات فخر الدين

للأمير رسائل كثيرة في توسكانا (في سجلّ دولة توسكانا السريّة رسالة من المعني ص ٣١٠) وليفورنو وفلورنسا وغيرها، البعض منها بخطّه أو بتوقيعه، والبعض الآخر بخطّ مدبّره الحاج كيوان أو كتابه. وتلقّى عددًا من الرسائل من الحكّام كبار المسؤولين، وكلّ هذه الرسائل مدوّنة بسجلاّت، ومحفوظة بالأرشيفات الإيطاليّة. ومن مراسلات قنصل فرنسا في الآستانة Boppe رسالة من الملك لويس الثالث عشر إلى فخر الدين في أرفيف الحكومة الفرنسيّة تفيد " أنّ الحكومة الفرنسيّة كانت تريد زيادة الضرائب نحو ثلاثة عشر بالمائة على التجارة الفرنسيّة في الثغور الواقعة بمنطقة حكم المعني ليسدّدوا بهذه القيمة ما انكسر على بعض التجار والقناصل، ويرجو منه أن يساعد القناصل على تنفيذها ولا يعيق إجراءاتها"^{١٧} (لم نعثّر في خلال بحثنا على تاريخ هذه الرسالة).

وفي سجلّ المعني، في خزانة مدينة فلورنسا، رسالة من أوراتسيو منشيني (خادم الكردينال كرافا وفردينندو الأوّل دوق توسكانا) إلى فخر الدين بتاريخ ١٨ آذار ١٦١٤. ومن الرسائل أيضاً رسالة من فخر الدين إلى السلطان (وهو المذكور في نصّ الرسالة ولكن لم يحدّد اسمه) وقد أرسلها إليه بعد أن طلب منه السلطان أن يذهب إلى خيمته ليعقد هدنة، وهي تعريب رسالة المعني كما وردت في تاريخ بول ريكو، مؤلّف كتاب **تاريخ الدولة العثمانية بالإنكليزيّة**. وهناك رسالتان، الأولى من المطران حنا الحصريّ إلى فخر الدين نقلاً عن المجلّد ٤٢٧٦ من سجلاّت فلورنسا، والثانية، وهي رسالة تجاريّة، أرسلها الأمير فخر الدين إلى الغراندوق فردينندو الأوّل والغرندوقة كريستينة اللورينيّة جدّة فردينندو، وُجدت بخطّه في مكتبة الأوفيشي في فلورنسا في سجلّ خاصّ تحت رقم ٤٢٧٦ ص ٣٠٨.

^{١٧} المرجع السابق، ص ٢٧٦.